وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

من أمالي ابن ناصر الدين

جـزء فيـه :

جواب عن بيت شعر

د. مصطفى الحدري*

ابن ناصر الدين (ت ٩٤٢هـ) محدث الشام ومؤرخها في النصف الأول من القرن التاسع الهجري . ومن الطريف أن يجد له د. مصطفى الحدري مقالة نقدية يتحدث فيها عن جمال الأسلوب والمعنى ، وأنواع الإبداع والمبالغة والبديع .

« المجلة »

---

* من كلية الآداب بجامعة البعث . حمص – سورية .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

كثر ماترددت إلى مكتبة الحرم المكي الشريف عندما كنت مجاورًا في مكة المكرمة . وقد اطلعت على عدد من المخطوطات المحفوظة هناك ، ومنها أمالي ابن ناصر الدين ؛ كانت في مجلد ضخم بخط عمر بن فهد المكي . وفيها مقالة نقدية حول بيت من الشعر مُدح به النبي الأعظم محمد ﷺ . وهي هذه التي أقدِّمها .

وابن ناصر الدين هو : محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن مجاهد بن يوسف ابن محمد بن أحمد بن علي القيسيّ ، الدمشقي ، الحموي الأصل . كان محدث الديار الشامية ومؤرخها في النصف الأول من القرن التاسع للهجرة . ولد سنة ٧٧٧هـ . وعاش الفترة التي عاث فيها تيمورلنك الأثيم وجيشه الليئم فسادًا في بلاد الشام ، فكان من العلماء الذين أبوا لشعلة العلم أن تنطفئ في تلك الليالي المدلهمّة .

ذكروا أنه حفظ القرآن منذ نعومة أظفاره ، واستظهر عددًا من المتون التي كانت كتبًا دراسية في ذلك العصر ، ثم أخذ الفقه الشافعي عن كبار علماء الشافعية ، وأصبح فقيهًا شافعيًا . وقد حُبّب إليه علم الحديث فطلبه بنفسه في بلده وغيرها ، وكان عدد شيوخه أكثر من ستين .

وقد وُلّي مشيخة دار الحديث الأشرفية سنة ٨٣٧هـ . وهي المدرسة التي بناها الملك الأشرف الأيوبي لأحد المشايخ في سفح جبل قاسيون ، وكان الشيخ عبد الرحمن ابن محمد (أبي عمر) ابن أحمد بن قدامة المقدسي أول المدرسين فيها ، ومن هنا دُعيت مدرسة شيخ الإسلام أبي عمر .

وفي سنة ٩٤٢هـ أنعم الله على ابن ناصر الدين بالشهادة ؛ وذلك أنه خرج وجماعةً لقَسْم قَريةٍ من قرى دمشق ، فسمَّهم أهلُها . وقد كان رحمه الله متثبّتًا في روايته ،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

متفننًا في معرفته ، حسن الخط ، ديّنا ، حسن السيرة دَمِثًا كثير الحياء شديد الاحتمال ، صوفيًا مع محبته لابن تيمية . وقد ألّف في الحديث ومصطلحه والسيرة والرجال والفقه واللغة وغير ذلك .

ومن الطريف أن توجد له مقالة نقدية في المخطوط الذي أشرت إليه . وفي ذلك المخطوط معظم مؤلفاته التي كان حجم الواحد منها غير كبير .

وتقع هذه المقالة مابين الورقتين ٤١ و ٤٦ وقد كُتب على وجه الورقة الأولى منها :

« جزء فيه جواب سؤال من ماردين .

عن بيت شعر مدح به النبي ﷺ .

سُئلت عنه .

وذلك في أواخر سنة سبع عشرة وثمان مئة .

المجيب محمد بن أبي بكر عبد الله بن محمد عفا الله عنهم بكرمه » .

حققت هذه المقالة بنسخها من خط ابن فهد المكي الذي قال في آخرها : « هذا لفظه بحروفه ، ومن خطه – أبقاه الله تعالى – نقلت في حَزَّةٍ (أي حين ووقت) واحِدَةٍ من يوم الأربعاء مستهلّ صفر – خُتم بالخير والظفر – سنة سبع وثلاثين وثماني مئة مدرسة شيخ الإسلام أبي عمر (كذا !) بسفح جبل قاسيون . قال ذلك وكتبه محمد المدعو عمر بن فهد الهاشمي المكي لَطَف الله به . والحمد لله ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . حسبنا الله ونعم الوكيل » .

وبجوار خط ابن فهد عبارة هذا نصها : « الحمد لله . بُلِّغ – كان – أعزّه الله تعالى سماعًا من لفظي . محمد بن أبي بكر » اه . وهذه عبارة يوثّق فيها ابن ناصر الدين ماكتبه ابن فهد وسمعه .

وابن فهد أَحَدُ المشتغلين بالحديث والتاريخ ، وقد ذكرته في مقدمة كتاب السلاح والعدة على أنه أحد مؤرخي مدينة جُدَّة . ذُكر أنه أقام في الشام وأخذ عن ابن ناصر الدين ، وهو من وفيات سنة ٨٨٥هـ ، أي بعد شيخه بثلاث وأربعين سنة .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وابن ناصر الدين في هذه المقالة يرد على من انتقد هذا البيت في مدح النبي ﷺ :

فلا عَيْبٌ بِسَيْبِ نَداكَ لَكِنْ تُقَصِّرُ عِنْدَ مَجْراهُ السُّيولُ

ويبدو أن هذا الانتقاد قد أثار مشكلة في مدينة ماردين ، فأرسل قوم منها إلى ابن ناصر الدين يسألونه عن رأيه في ذلك الانتقاد ، لأن المنتقد قد كفّر قائل هذا البيت ، فأزعج ذلك ابنَ ناصر الدين ونسب المنتقد إلى التشغيب والأذى ، وبين خلو البيت من المآخذ الدينية ، كما بيّن رأيه في جماليّة أسلوبه ومعناه ، وكان ذلك بلغة عصرهم الذي حرص فيه الأدباء على السجع وما إليه من ضروب البديع .

وقد حققت هذه المقالة ، فخرّجت الآيات ، وفسرت ما كان غامضًا من الكلم والاصطلاحات ، وأشرت إلى الأبحر العروضيّة التي تنتمي إليها الأبيات التي أوردها المؤلف رحمه الله .

وأنا بنشر هذه المقالة عن المخطوط الذي ذكرت إنما أشير إلى أهميته ، وضرورة أن يشتغل أحد المنصرفين إلى الحديث وعلومه به ، فإنه أحد الكنوز التي ورثناها عن أجدادنا العظماء .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

[٤٢] بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم .

الحمد لله مظهرِ الحقِّ ورافعِه ، ومزهقِ الباطلِ وواضعِه . وصلواتُه الزاكيةُ النامية الجمّةُ[١] على سيِّدِنا محمدٍ عبدِه ورسوله نبيِّ الرحمةِ ، وعلى آله وصحبِه الأكرمين ، وتابِعيهم بإحسانٍ إلى يومِ الدّين ، وسلامُه .

أما بعد : فإن بعضَ من أظهرَ لسانُه ، ماطوته طويتُه ، وأجنَّه[٢] جَنَانُه . خطّأ قائلَ ذاك البيت المُعْلَم[٣] ، من القصيدة المُلْتَزَم فيها مالا يَلْزَمُ[٤] ، التي مُدِح بها سيدُنا رسول الله ﷺ . والبيت هو : [من الوافر]

فلا عيبٌ بسيبِ نَداك ، لَكِنْ تقصِّرُ عندَ مجراهُ السيولُ

وبلغني أن الذي خطّأ قائلَ هذا ، بالغَ في التّشغيبِ[٥] وآذى . حتى من المبالغة في جهلِه ، رماه بالكُفر في قوله ، أتراه ماسمع الحديث النبويّ الصحيح في نقله « ومَنْ رمى مؤمنًا بِكُفرٍ فهو كقتله[٦] . » .

---

(١) الجمة : الكثيرة .

(٢) أجنّه : ستره .

(٣) البيت المُعلم ، أي المشهور المعروف .

(٤) سماه البديعيون الالتزام ، وسموه أيضا لزوم مالا يلزم . وبعضهم سماه الإعنات والتضييق . وحَدُّه أن يلتزم الناظم أو الناثر بحرف قبل حرف الروي أو أكثر منه على قدر قوّته ، مع عدم التكلف . وقد جاء منه في القرآن العظيم قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بالخُنّس الجوارِ الكُنّس ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجرًا غيرَ ممنون ﴾ ومن النظم قول المعري الذي أكثر منه :

لاتطلبَنّ بآلةٍ لكَ حيلةً قلمُ البليغِ بغيرِ حظٍّ مِعْزَلُ
سكنَ السماكانِ السماء كلاهما هذا له رمحٌ وهذا أعزلُ

انظر : حلية البديع للشيخ قاسم البكره جي ص ٢٦٤ .

(٥) التشغيب : من الشَّغْب – بتسكين الغين المعجمة – وهو تهييج الشر .

(٦) ذكر في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث أنه في البخاري – إيمان ٧ و لم أجده .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولو تدبَّر[1] بقلب صافٍ ، وتأمّل بِعَينِ الإنصافِ ، وكشف عين بصيرة الاعتِراف ، لاتضح له معنى البيت الذي ردّه ، ولما بالغ في الطعن ، ولاتجاوزَ حَدَّه ؛ [من الطويل]

تكلّمَ في بيتٍ شَريفٍ بمدحِهِ ألَمْ يدرِ أنّ الصمتَ سُتْرةُ جاهلِ ؟
ألم يكُ ذا تَقوْى يراقبُ خشيةً ويخشى رقيبًا حاضرًا قولَ قائلِ ؟

ولقد أجادَ أبو الطيب المتنبي في مقاله الصادقِ على هذا الرّادِّ وأمثاله : [من الوافر]

وكَمْ مِنْ عائبٍ قولًا صحيحًا وآفتُهُ من الفهمِ السقيم !

فمعنى البيت على من رَدَّه التبسَ ، ولم يعلم أنّه في البديع من نوع الإبداع[2] مُقْتبس .

[٤٣] والإبداع على أنواع :

منها : بَدلُ المدح بصورة الذم في السماع ، كقولهم في الألفاظ المُحرّرة : « قاتله الله ما أشعره ! » .

ومنه نوعٌ بالاستثناءِ لَقَّبوه ، وفي قسم البدل أدخلوه ، كقوله تعالى : ﴿ ومانقموا منهم إلا أن يؤمنوا باللهِ العزيزِ الحميدِ ﴾[3] . وأنشدوا في معناه : [من الطويل]

ولاعيبَ فيهم غيرَ أنّ سيوفَهم بهنَّ فلولٌ من قراعِ الكتائب[4]

و « لكن » هي أحد حروف العطف في الاتضاح ، وهي للاستدراك المسمى استثناء في الاصطلاح . قال الله عز وجل : ﴿ ماكانَ محمدٌ أبا أحدٍ من رجالِكم

---

(١) تدبر : تفكر .
(٢) الإبداع : هو أن يأتي الشاعر في البيت الواحد بعدة أنواع من البديع ، أو في القرينة الواحدة من النثر . وربما كان في الكلمة الواحدة ضربان من البديع ومتى لم يكن كذلك فليس بإبداع . انظر حلية البديع للبكره جي ٢٤٢ .
(٣) البروج ٨ .
(٤) بيت مشهور من شعر النابغة الذبياني في مديح الغساسنة . انظر ديوانه ٥١ .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولكن رسولَ اللهِ ﴾ الآية[1] ... والاستثناء في البيت من هذا القسم نفسِه ، وهو من باب استثناء الشيء من غيرِ جنسه . وعليه قولُه تعالى : ﴿ مالهم بهِ من علمٍ إلا اتباعَ الظنِّ ﴾[2] .

وقال عمرو بنُ الأيهمِ التغلبيّ[3] خليفةُ الأخطلِ دينًا وغَيرةً ؛ من قصيدة هجا فيها قَيسًا : [من الخفيف]

ليسَ بَيني وبينَ قيسٍ عِتابٌ غَيرَ طعنِ الكُلى وضربِ الرقابِ

وأنشد أبو الفرج بن الجوزيّ – رحمه الله – في التبصرة[4] ، في مدح عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : [من الطويل]

ولا عيبَ في أخلاقِه غيرَ أنّها فرائدُ درٍّ مالَها من نظائـرِ

ومن هذا القبيل ، استدراكُ الناظم في بيته الجميل لأنه نفى العيبَ عن السّيب ، واستثنى شيئًا من غير جنس العَيْب . فجعل مجرى سيب الممدوح عليه أفضلُ الصلاة والسلام – تقصّرٌ عنه السيولُ مع الكَثرة في المجرى والانسجام .

هذا إذا فسر العيب بمعناه المألوف .

وله معنى آخر في اللغة معروف ؛ قولهم : عابَ الماءُ ؛ إذا نَقَبَ الشطَّ ، فخرجَ مُجاوزَه . حكاه الخليل في العين ، وتبعه ابن سيده في المُحكم وماجاوزه ، فيكون على هذا معنى البيت المراد : إن عطاءه – ﷺ – بغير إفساد ، ليس كالماء إذا عاب ، فخرج مُجاوزةً من غير باب .

ولما كان الغالب أن يُفْهَمَ من هذا تحجيرُ[5] العطاء مع قلّته ، استدرك بما يُشْعِرُ بخلافه من جَودةِ العطاء [٤٤] وكثرته ، فقال :

---

(١) الأحزاب ٤٠ .

(٢) النساء ١٥٦ .

(٣) عمرو بن الأيهم التغلبي شاعر من نصارى تغلب توفي نحو سنة ١٠٠ للهجرة . قيل : اسمه عُمير وهو من سكان الجزيرة الفراتية . عاصر الأخطل ومات الأخطل قبله .

(٤) كتاب لابن الجوزي رأيته مخطوطًا في مجلد كبير .

(٥) تحجير العطاء : منعه .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

..... لكن تقصّرُ عندَ مجراهُ السيولُ

ولعمري لقد بُني هذا البيت على أركانٍ متينة ، وأسسّ على معان رصينة ، تشهد لبانيه بالبيان ، وبديع التنويع في المعاني الحِسان .

ومما اشتمل عليه البيت من المعاني السابغة ، نوعٌ من أنواع المبالغة . وهو أتمُّ أنواعها وأعلاه ، بأن يكون الكلام مُبالَغًا في فحواه ، مشتملًا على أعلى عبارات معناه . كقول الله عز وجل : ﴿ يومَ تَذْهَلُ كلُّ مرضعةٍ عما أرضعَتْ ﴾[1] . إنما خُصَّتِ المرضعةُ دون لفظ الوالدة استظهارًا ، لأن المرضعةَ لاتفارقُ الرضيعَ ليلًا ولا نهارًا . وبحسب القرب يكون الميل والحبّ ، وذلك بخلاف لفظ الوالدة وعاداتِها الواردةِ .

ووجه هذا النوع المشهور ؛ من البيت المذكور ، قولُه « نداك » لأن الندى هو الكرم . ولو قال بَدَلَه ونظم :

فلا عيبٌ بسيبِ يديك..... .....

لاستقام النظام ، وحسن التئام الكلام ، مع أن خروج السيب من يد الأشراف أبلغ في المَبَرّة[2] والإسعاف[3] ، لكنه أَضْرَبَ عن ذاك ، وأتى بلفظة « نداك » لأن الندى في أحد معانيه الجُمَل[4] ، هو ما أصابك من بَلَل . وقيل : هو مايسقط آخرَ الليل من السماء . والمُراد به اليسير من الماء ، فأتى بلفظ نداك المقبول ، ليكونَ أبلغَ مع ذكر السيول . وعلى هذا يكون معنى البيت في حسن الانتظام :

إنّ أقلَّ شيء من عطاء نبيّنا – عليه أفضل الصلاة والسلام – يعلو على ماكثر وعظم من عطايا الناس ، بمنزلة السيول مع الندى في القياس .

---

(١) الحج ٢ .

(٢) المبرة كالبّر ، ضد العقوق .

(٣) إسعاف المرء : مساعدته وقضاء حاجته .

(٤) معانيه الجُمَل : معانيه المتعددة .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وبهذا التقرير ظهر تَمكُّن لفظة « نداك » في البيت من التحرير . وأنها – دون غيرها من الألفاظ الحسنى – أبلغُ قوةً وأرفعُ معنى .

وفيه من أنواع البديع ، وبدائع التنويع ، غيرَ ماذكرنا من المعاني والبيان [أشياءُ] ، منها : المطابقة[1] بذكر التقصير والجريان .

ومنها المناسبة[2] بين اللفظ ومعناه بذكر الندى والسيل ومجراه .

ومنها : الانسجام المُنْتَظِم لحسن سبك البيت وسهولة الكَلِم ، وخِفّةِ النطق بها كتحدُّرِ الماء المنسجِم .

ومنها : نوع من المبالغة غيرُ ماذكرنا من الشرح ، فلو اقتصرنا على نفي العيب عن السيب لكان حَسَنًا [٤٥] في المدح ، فما اقتصر على ذلك بل بالغ وفاخر وسلك في المدح مَهْيَعًا[3] آخر .

ومنها : جمع المُؤتَلِف والمُختلف في البيان . فالندى والسيل مؤتلفان والتقصير والجريان مختلفان . وكذلك الوحي – والإشارة من بدائعه – وهو : التعبير عن الشيء بأحد توابعه . ويكون مع الوجازة اليسيرة ، مشيرًا إلى معانٍ كثيرة . ولا يخفى مافي البيت من ذاك المُشارِ إليه بقوله « نداك » .

ومنها : المُماثلة ، وهو أن يريد المتكلم معنىً مرفوعًا . فيأتي بلفظ يكون لمعنى آخر موضوعا يُنبئ بذلك عن مراده ومعناه . كما في لفظ « نداك » مع ذكر السيل ومجراه .

---

(١) المطابقة : يقال لها الطباق أيضا . وهي الجمع بين متضادين أو متقابلين في الجملة سواء أكان التقابل حقيقيًا أم اعتباريًا ، وسواء أكان بالسلب أم الإيجاب . انظر حلية البديع للبكره جي ٧٤ .

(٢) المناسبة على ضربين ، منها المعنوية وهى أن يختم الكلام بما يناسب المعنى الذي بدأ به القول ، كقول الله سبحانه وتعالى في القرآن العزيز : ﴿ أو لَمْ يَروا أنّا نسوقُ الماءَ إلى الأرض الجُرُزِ فنخرج به زرعًا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ ، فقد بدأ الآية ذات الموعظة البصرية بقوله ﴿ أو لم يروا ﴾ وختمها بقوله : ﴿ أفلا يبصرون ﴾ .

أما المناسبة اللفظية فهي دون المعنوية وهي أن يأتي المتكلم بألفاظ من جو واحد مع الحرص على التوازن اللفظي . وربما حرص على التوازن اللفظي والتقفية . انظر حلية البديع ١٥٨ – ١٥٩ .

(٣) المَهْيَع : الطريق البيّن .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولولا خوفُ السآمة والملالة ، لشيَّدْنا البيت بتطويل الدلالة . ومن حَقَّقَ نظره في البيت وتدقيقه . ودقق فكره في بناء بيانه وتحقيقه . ولَمَحَ بعين الإنصاف مُلَحَه[1] ، حمد ناظمه على ذلك ومدحه ، وقال : [من المجتث]

أيا إمامًا تسامى ... له معالٍ وفخرُ
المادحونَ نجومٌ ... وفيهمُ أنتَ بدرُ
نظمْتَ مدحًا بديعًا ... بينَ المدائحِ دُرُّ
بالغْتَ فيهِ حقيقًا ... إن البلاغةَ سحرُ
وقد أتاكَ نوالٌ ... بذا المديحِ وذِكْرُ
طولَ الزمانِ ثناءٌ ... وفي القيامة أجرُ

قال ذلك وكتب العبد محمد بن أبي بكر عبد الله بن محمد – عفا الله عنهم بكرمه – وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا .

(١) جمع ملحة : مايُتملّح به ويستطاب من الحديث .

This file was downloaded from QuranicThought.com